التضمين.. أثره في صوغ المتن الروائي ودلالته
(رواية ملوك الرمال) لعليّ بدر أنموذجا

د. عقيل عبد الحسين/ جامعة البصرة

ملخص البحث

لتضمين وسيلة من وسائل إدراج الحكايات الفرعية أو المعلومات، أو التوصيفات فيما يتعلق برواية علي بدر "ملوك الرمال". وقد جاءت التضمينات فيها على هيئة معلومات حول الصحراء وأهلها وطبيعتهم ونسائهم. وهي معلومات أو توصيفات توظف في سياقين؛ الأول: ظاهر يتصل بمرجعيات استشراقية تخلع على الصحراء وعوالمها معرفة متخيلة مسبقة. والثاني: يتصل بسياق كتابة الرواية العراقية التي تنتمي إلى ما يُعرف في النقد العراقي بـ"رواية ما بعد التغيير". وهي رواية لا تغفل السياق الثقافي، والاجتماعي، والسياسي، والإنساني، الذي تُكتب فيه، محاولةً الإجابة عن تساؤلات تتعلق بسبب انهيار بلد مثل العراق، مبررةً سبب انسحاب المثقف، والكاتب، إلى المنفى.

مـدخـل

يناقش هذا البحث أحد نماذج الرواية العراقية التي كُتبت بعد التغيير، وهي تحاول أن تعيد تأمل المشكلة العراقية الحالية في تداخلاتها الثقافية، والمدينية، والسياسية، والاجتماعية، بوسائل، وأدوات، بعضها ذاتي، أي من وجهة نظر الراوي الذاتية. فهو يحلّ في الوقائع، والحكايات، والتواريخ، كما تفعل حياة البابلي الساردة في رواية "سيدات زحل" للطفية الدليمي[1]. وبعضها موضوعي، أو يدّعي الموضوعية، كما في روايات الروائي العراقي المغترب علي بدر، وتحديدا رواية "ملوك الرمال"، التي يصعب الوصول إلى ما تتضمنه من دلالة، ويصعب تحديد محمولاتها التي تتصل بنظرة ثقافية ما بعد كولونيالية[2] لما يجري في العراق اليوم. فما يجري في العراق هو نوع من الصراع بين القيم التقليدية المتصلة بحياة الإنسان العربي منذ القدم، وقيم المدينة الحديثة غربية الطابع. ولعل الإنسان العربي المعاصر لم يستطع التخلص من بعض قيم البداوة حتى بعد انتقاله إلى المدنية. وهو ما نلمحه في رواية ملوك الرمال. فالجندي وراوي الأحداث، المنتمي إلى المدينة، وإلى أعلى مؤسساتها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

تنظيما وحداثة، وهو الجيش، يُكلف بمهمة مواجهة مجموعة من البدو الذين لا يتوقفون عن توجيه الضربات للجيش.. ذلك الجندي، والمجموعة القتالية التي يأتي معها، يخرجون من المعركة مع البدو المعدودين المنفلتين خاسرين. إما لسوء تقديرهم لقوة البدو ولفاعليتهم ولعدم فهمهم لطبيعتهم التخطيطية والنفسية، كما هو حال الضابط الذي انتهى مقتولا ومتسببا بمقتل أفراد المجموعة ما عدا الراوي، أو لأنهم انبهروا وضعفوا في مواجهة طبيعة البادية، كما هو حال الراوي الذي نجا من الموت على يد جساس ومجموعته، لأنه كان الأقرب إلى فهم البدو، والبادية، ولكنه، في النهاية، خسر معركة المدينة وقيمها مع البادية وقيمها، لينتهي بإعلان فشله الضمني، وباستسلامه لقيم وشروط الأخيرة المستحكمة من خلال إطلاق جساس، وعدم تسليمه لقيادته العسكرية، أو لأي مركز شرطة بتهمة قتل رفاقه، وذلك كله جرى في ظروف اندلاع حرب الخليج الثانية، والقصف الشديد الذي تتعرض له بغداد.

التضمين والنسق السردي:

تمثل العودة إلى النسق السردي التتابعي التقليدي، الذي عُرف في السرد العربي القديم، وفي السردية العربية الحديثة في بداياتها[3]، في رواية عراقية مكتوبة في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، شكلا من أشكال الاستثمار السردي لإمكانات ذلك النسق المتمثلة في أمور كثيرة من بينها ضمان جذب القارئ إلى السرد، وضمان اهتمامه به. الشيء الذي لم يعد يعني الكثير من الروائيين. والشيء الذي أدى إلى تغييب عنصر القراءة والتأثير عن الرواية. وهو ما لا ترضاه رواية تنتمي إلى ثقافة ما بعد الحداثة التي تميل إلى الجماهيرية، وإلى إعادة النظر في الصناعة الأدبية، لتكون شأنها شأن أية سلعة قابلة للتداول بما تتضمنه من نفع[4].

ويضمر اللجوء إلى السرد المتتابع، في ما يضمر، شكلا من أشكال المحاكاة لمرحلة من مراحل الكتابة السردية التي كان يسودها الاطمئنان للقارئ، وللعالم، وللمعرفة، ولقدرة الأدب، والنص الأدبي، على التأثير، ولسلطته في الثقافة والجمهور. وهي، عموما، مرحلة السرديات التقليدية التي انتمت، بشكل أو بآخر، إلى حقبة التنوير بعامة[5]، وإلى الأثر الاستعماري بخاصة. وكلاهما، التنوير والاستعمار، يتحركان بالمرجعيات ذاتها، ويتشكلان على ضوئها، إذ كلاهما يبشران برسالة العقل، ورسالة الإنسان الأبيض[6] الغربي مالك العقل، ودوره في إنقاذ الأمم الأخرى من التأخر والظلام والهمجية والوحشية. وذلك كله يكون على أساس المعرفة، وما تتضمنه من قوة وسلطة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

والسرد المتتابع في طبيعته القديمة، والتقليدية يقوم على أساس راوٍ يمتلك خيوط الحكاية، ويقوم بترتيبها بما يضمن استمرار حاجة المروي له، والقارئ، إليه، وخضوعهما لسلطته نفسيا وفكريا. فهو، أي الراوي، يؤجل الأحداث المهمة ليخلق عند القارئ التشويق، وليجعله منجذبا إلى القصة[7]. وهو يحرك عواطفه وانفعالاته ويرهنها بإرادته، معطلا أية قدرة لدى القارئ على النقد والتأمل والتفكير. فالأخير إنسان منفعل، كما تصوّره الكتابات التي تصف متلقي القصة التقليدي القديم في المقهى[8].

إن استرجاع هذه الصورة للعلاقة بين السرد والجمهور، أو بين الراوي والمروي له، يضمر في داخله رغبة من المؤلف:

أولا: في المحاكاة الساخرة للصوغ النمطي القديم للعالم الروائي، ذلك الصوغ الذي يضمر التعالي على المروي له، والتذاكي عليه. وهو ما تمثله المرويات القديمة خاصة تلك التي تتصل بالعلاقة بالآخر، الأقل شأنا، وبالشرق، وبالبادية، وغيرها من المرويات ذات الطابع الاستعلائي التي شكلت المعرفة التقليدية بالآخر. وبتأثير الاستعمار فينا، شكلت العلاقة بالذات، فنحن، بتأثيرها، بتنا غير قادرين على فهم أنفسنا، أو تراثنا، من دون الاعتماد عليها[9].

ثانيا: يضمر استدراجا للقارئ ليكون تحت سلطة المؤلف سواء بوصفه قارئا تقليديا، يسعى إلى التشويق والاستمتاع بالسرد كما يفعل سلفه المستجيب للسرد القديم والحديث التقليدي، أم بوصفه قارئا مثقفا. وفي هذه الحالة سيكون القارئ متعاطفا مع المؤلف، وملتمسا له المبرر الأخلاقي في اختياره الاستسلام، والتحوّل إلى المنفى. فما يحصل من صراع بين المديني والهمجي، ليس متكافئا أبدا، لأنه لا يقوم على معرفة حقيقية بالطرف الثاني من الطرف الأول بقدر ما يقوم على معرفة متخيلة متوهَمة وتقليدية، إن كان لها أن تؤجل موت الطرف الأول والسارد، فإنها لن تحقق له النصر كما يتوهم المتوهم.

تروى أحداث الرواية، موضوع البحث، بالسرد المتتابع الذي يأتي فيه ترتيب الحوادث في الخطاب السردي بحسب وقوعها في الحقيقة من دون تقديم أو تأخير. فحبكة رواية "ملوك الرمال" الرئيسة تدور حول مجموعة من الجنود العراقيين في الفترة ما قبل حرب الخليج الثانية يكلفون بمهمة في الصحراء، هي مطاردة مجموعة من البدو.

وتبدو المهمة في نظر المجموعة المكلفة بها سهلة جدا في ضوء التسليم بتفوق الجيش تنظيميا، وعسكريا، وعدديا، ومعنويا، فهو الجيش العراقي في مواجهة بدو متفرقين! ولكن حين تبدأ المهمة يُفاجأ الجنود بعدم قدرتهم على الوصول إلى أي شيء مع البدو المطلوبين، فهم

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

يلاحقون وهما، أو خيالا، وفي كل طلعة يفقدون أحدهم قتيلا، إلى أن تُباد المجموعة كلها، ما عدا الراوي، والجندي الوحيد الذي ينجو لتقديره لتحركات عصابة البدو، وخطرهم.

على المستوى الحكائي المباشر للرواية، يعود سبب الهزيمة إلى عدم مراعاة قائد المجموعة طبيعة العدو، وطبيعة الأرض، وإلى تمسكه بخططه التقليدية التي تصلح لقتال الجيوش، لا لقتال العصابات. فهو يريد التمسك بالأرض، والأرض لا قيمة لها، بل هي تتحول إلى مصيدة! وهو يريد أن يتعامل معه من فهمه للعدو التقليدي، بينما هو، أي البدوي، ليس عدوا تقليديا لأنه لا يتحرك من أهداف محددة، ولا يريد أن يحقق شيئا، ولا تعني الخسارة أو الربح له شيئا. هكذا تعلمه البداوة. إنها حركة طبيعية تأتي بمغانمها معها، أو تأتي بمغارمها. وفي الحالتين الأمر لا يعنيه، أي البدوي، لا الموت ولا الحياة[10] تعنيه، خلافا للجيش الذي يتحرك بحساب، ويخشى الهزيمة، ويسعى إلى النصر.

ولإتمام الحبكة، والوصول إلى نهاية الرواية، يصرّ الراوي الناجي على التمكن من جساس، والقصاص منه لما أوقعه بأفراد مجموعته، فيلجأ إلى أكثر من قبيلة عربية لطلب المأوى، والمساعدة، ويقع بيد قبيلة خصمه نفسه من دون أن يدري، ثم يهرب منهم إلى قبيلة أخرى، يعلم أنها معادية لقبيلة جساس، تساعده في القبض على الأخير بغية تسليمه إلى القيادة العسكرية. ويتزامن خروج الراوي من الصحراء بجساس مقيدا، ووصولهما إلى المدينة مع القصف الأمريكي العنيف على العراق، وحرب الخليج الثانية، فيقرر الجندي الظافر بعدوه أن يطلق سراحه، وأن يولي هو وجهه بعيدا عن وحدته، مقررا عدم العودة إليها.

تطغى الحبكة على السرد، ويسود التتابع التقليدي فيه، ويحتل مساحة كبيرة من متن الرواية. وهو ما يجعل التوقفات لوصف الصحراء وعوالمها في أثناء تتابع الحوادث، غير محسوسة، لأننا بطبيعتنا ننصرف في الرواية إلى التشويق، وإلى الحوادث، ونشعر بالملل من الوصف، أو الشرح، أو التوضيح، أو كما سنسميه التضمين، وقد نمرّ على هذا الأخير من دون أن نتوقف عنده، هذا فيما تقوم دلالة الرواية عليه.

فما قيمة الحبكة التشويقية حول عملية الجنود العسكرية وملاحقتهم لعصابة البدو ومقتلهم، وتمكن الجندي الراوي من زعيم العصابة، وإطلاق سراحه في النهاية؟! لا شيء! وما قيمة السرد المتتابع نفسه، وما أهميته في سياق رواية حديثة يمكن أن تستفيد من أساليب سردية أكثر تنوعا وتعقيدا تجعلها أقرب من الروايات العراقية التي تُكتب في وقتها، وأغلبها، تقوم على أنساق سردية تعتمد تكسير الزمن وتشظيته،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

وإحداث التداخل فيه، بما يجعل الرواية أكثر معاصرة؟

إن أهمية النسق المتتابع، كما افترض، تأتي من إمكانية تضمينه للتوقفات الوصفية التي تكثر في رواية "ملوك الرمال" وتأتي لغايات سردية ودلالية. سأتحدث عنها بالتفصيل. ولكن قبل ذلك لا بد من الإجابة عن سؤال: ما التضمين؟

ورد في معجم السرد تعريف للتضمين مقرونا بكلمة الانعكاسي[11]. والانعكاسي بالمعنى المرآوي، أي الذي تنعكس فيه نهاية القصة، أو الرواية. وهو أن تضمن حكاية تكون بمثابة مرآة للحبكة الأساسية في الرواية. ومثالها الأشهر جاء في مسرحية هاملت الذي يطلب منه شبح أبيه الانتقام من العم، والأم، لأنهما تواطآ على قتله، ولكن هاملت يشك في حواسه فيلجأ إلى إعداد تمثيلية بحادثة قتل الأب الملك على يد العم، ويعرضها عليه، وعلى أمه، ويرصد ردة فعلهما ليتأكد من صدق زعم الشبح.

وقد يكون التضمين مباشرا، أو صريحا، ولكن في الكثير من الروايات يأتي التضمين غير صريح، ويحتاج إلى تأمل. كما أنه لا يقتصر على التمثيلية، كما في حالة هاملت، أو القصة داخل القصة، بل قد يكون على شكل توصيف للوحة، أو سرد لفيلم سينمائي، أو لمحاضرة[12]، أو على هيئة وصف مجلوب من خارج الرواية وأحداثها، ومن حقل علمي، أو تخيلي، لا يمت إلى أحداث الرواية بصلة. كما نجد في التضمينات التي اعتمدت عليها رواية ملوك الرمال كثيرا في إقامة المتن السردي، وفي إقامة الدلالة الكلية للرواية.

سيكون للتضمينات، التي تتصل بالصحراء وتفكير أناسها وسلوكهم مقارنة بالمدينة وطبيعتها، الأثر الكبير في تشكّل المتن الروائي، وفي علاقته بالقارئ خارج العالم الروائي، وفي تشكّل الدلالة الكلية التي تتعلق بالكاتب، وتصل الرواية بروايات ما بعد التغيير، وكما سيتضح .

التضمين وتشكّل المتن الروائي:

يتشكل المتن الروائي معتمدا على الراوي الحاضر في الرواية الذي يشارك في الحدث، بل يتحول من روايته بوصفه جزءا من الفصيل الذي انطلق إلى الصحراء لملاحقة البدو، إلى الفاعل الأساسي في الرواية الذي يتولى القبض على جساس بمفرده، ولم يكن ليقوم بهذه المهمة الصعبة لولا معرفته بالصحراء وما فيها.

وإذا بدأنا من البدو، وهم أول ما يواجه الراوي، ويثير انتباهه، فإنهم أناس يتحركون من "دون ابتسام، يقرأون ويفكون رموز العالم الذي يحيط بهم ثم يهبطون ليلا في الوديان، يهبطون مثل آلهة قديمة بحركتهم الرشيقة والبطولية معا، ويتلاشون في الظلام"[13]. وهذا يشير إلى أن عليك أن تبذل جهدا في مراقبتهم، وفي تحليل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

حركاتهم القليلة، وقسمات وجوههم، لتستطيع توقع ما يقومون به من شرور سواء أكانوا من الأعداء كجساس أم من الأصدقاء كمنور الدليل الذي يظهر في النهاية، وحسب توقع الراوي الذي يصدق، أنه متعاون مع جساس ليوقع بالفصيل كله. ولعل منور يحتاج الى تدقيق أكثر من غيره، لأنه بدوي ذو وجه شامخ "سحنته بلون الأرض...طوال الساعة... لم يتحدث مطلقا، ولكن كان وجهه الذي لا يقول شيئا يهيمن على كل الحاضرين"[14]، ولأنه غير معلن العداء مثل جساس. ولكن الراوي الذي يعرف الصحراء، وعناصرها المختلفة، يدرك خطورة الغموض الذي تكتسي به سحنة منور، ويعرف أسبابه، فقد ((كان- أي منور- يقف في الموقع ذاته مثله مثل الضابط ومثلنا جميعا، ولكنه يدرك أن هذا الموقع لا يمكن المحافظة عليه، وهو لا يتردد في تركه، كان يستجيب لموقع آخر ينبثق من داخله، كان يدرك أنه من المحال السيطرة على الطبيعة التي تحيط بكل شيء، وتسيطر على كل ما تخلقه، ولكنه وفقا لاندفاع حرية لا نهائية في داخله، يجد الحرية في الاستجابة لها، لا في معاندتها))[15]. ولذا يكون الراوي أقرب من أعضاء الفصيل الآخرين إلى النجاة من خيانته. لأنه يعرف ما لا يعرفه العسكري العادي، وابن المدينة عامة. يقول الراوي: "والجيش كان يستخف بالبدو لأنهم يقاتلون في مواقع متغيرة، ومتنقلة، وبلا نظرية حربية، وهكذا كانوا يعدون البدو بلا معرفة ولا حساب ولا معدات ولا أدوات تفكير ولا أي شيء، يعدونهم عدوا جاهلا قاصرا"[16]. ولكن ليس تلك المعرفة إلا افتراضا مسبقا، فالحقيقة أن البدوي يعيش في بيئة غير المدينة، هي الصحراء، وهذه تصنعه وتحركه وتفكر فيه. إنه "يترك النظام ويسفح نفسه في فجور الطبيعة، ويمرغ جسده في حبات الرمل اللامحدودة، إنها وحدها تأسر خلاياه"[17]. وهم، أي البدو، "كلهم يدورون فيها (الصحراء). أما متى تلقاهم؟ فهذا ما لا يعرفه أحد مطلقا، لأن البدو يدورون حول أنفسهم مثلما هي الصحراء دائرة حول نفسها، مثلما هي السماء دائرة على نفسها، مثلما هي الكواكب والنجوم والأقمار دائرة على نفسها، مثلما هي الرمال دائرة على نفسها"[18].

والبدوي يتصرف بطريقة لا يدركها، ولا يهتم بها، غير البدو لأنه لا حسابات مسبقة له، ولا خطط، وإنما هو أقرب إلى الطبيعة وحركتها، فـ"فهؤلاء الذين يسيرون ببطء مع خرافهم وماعزهم وجمالهم لا يهمهم من التاريخ سوى الشمس التي تتوهج في شرق الصحراء المنبسطة، والظلال التي تخيم بسببها فوق الأرض، والرمال التي تعدّ مقياسا حقيقيا للزمن"[19].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

تظل معرفة الصحراء وأناسها التي يعكسها التضمين أساسية للسرد، حتى إن بدت تنميطية، أو استشراقية، بل لعل ذلك هو ما يجعلها مهمة! فالمهم هو نجاة الراوي وتحقيقه غايته من السرد، والرواية، وإن كانت لا تخلو تلك المعرفة من قدرة الراوي على النظر والانتباه والإفادة من معارفه المختلفة، الشيء الذي لا يستطيعه إلا القلة. بخاصة إذا ما تعدت المعرفة الأشخاص إلى الطبيعة التي قلّ أن يرى فيها الغريب والمقاتل ما يجذبه أو يغريه بالحديث عنها كما حصل للجندي والراوي الذي رأى فيها مشهدا لا يدانيه مشهد آخر في الجمال. ذلك ما تقوله تضمينات كثيرة بهذا الخصوص في الرواية. ولكن من أين يأتي جمالها؟ من عين الراوي وإدراكه، ومن قدرته على متابعة جمالها، ونقله عبر الرواية التي تقول في وصف الطبيعة: "حتى تستبين الرمال الذهبية التي تتوهج مع أول خيط شمس، تلك الخيوط المنتشرة على مسافة لا تقاس، والتي جعلتني منتشيا كما لو أن الرمل الذهبية تزنر الأرض بكاملها، حتى زرقة السماء التي تعارض وتناقض اللون الذهبي للرمل، كانت تصنع من الغيوم أهلة تكاد أن تكون مخفية، والنجمة القطبية متوهجة بشكل خفيف، وكنت أدرك أن هذه النجوم التي تخبو مع وهج الصباح، كانت قد عرفتها شعوب الصحراء من الساميين منذ آلاف السنين، وهي التي دلتهم في أكثر الليالي حلكة على الاتجاه الصحيح، وهذا القدم هو الذي جعلني ذلك اليوم منتشيا... لقد شعرت بالتماس مع هذا الرمل، وكأني أذوب في نوع من السرية المطلقة، لقد شعرت وأنا في الأعلى بلحظة غياب مكشوفة مع الصحراء، وأحسست بأصابعي تستدفئ بهذا الوهج القادم من الرمل أولا، ومن الشمس ثانيا، ومن المدار ثالثا، وكأن الصقور التي يخشاها الطيارون تفرّ من خاصرة الرمال لتوقظ في التجرد المديد أنداء الأقاصي، هنا السماء شاسعة حيث لا يوجد ماء، ولا صخب، ولا مدن تحت بحار السحب، إنه برد الفضاء العظيم والمنبسط مثل الصحراء، وهذا الستار الخرافي لقداسة المحاريب، والسر الغامض لارتعاشات البدايات المبكرة. كنت أنظر من الأعلى، كثبان الرمال وحيدة مترملة، متمتعة بالفقدان، وهي تنساب في توحشها المدهش لتتماهى بهدوء كامل مع كل ما يتدفق من جهة الشمال، متحدة بالتيه ومعزولة عن الخليقة برمتها"[20].

يختزل ذلك النص المطول، الذي حرصت على نقله كاملا، قدرة الراوي على تأمل تفاصيل المشهد الذي يتحرك فيه. وهو تأمل يأتي من كونه خارج المشهد، ويأتي من معرفة مسبقة عنه تضمر، بالرغم من أنها توحي بجمال الطبيعة وتسلطها على عين الراوي، قدرة العارف، أي الراوي هنا، على فهم المكان برغم صعوبة

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

وضعه النفسي، فهو مهدد بالقتل وشاهد على قتل مجموعته كلها قبل ذلك.

وتتناثر توقفات الراوي أمام الطبيعة على طول السرد، في إشارة إلى التماهي مع معالم الطبيعة وانجذاب الراوي إليها برغم غموضها ووحشيتها ولا ألفتها للعين المدينية الاعتيادية، وإلى قدرته على الإحساس بأدق تفاصيلها، والوصل بينها بلغة واصفة متبصرة ومتعمقة. يقول الراوي: "كنت أنظر شعاع الشمس في الظهيرة وهو يهبط الوادي المحاذي للنتوء الصخري الذي يقابلني. إنه شعاع متواصل ومخصب، أو هو بالأحرى صفاء مدهش ينفذ في الفضاء كله ينفذ في هذا الفراغ المذهل من أجل أن يبدد أية عتمة في الوادي، ويقضي على أية سماكة ممكنة للظل، ويختزل كل شيء، كل صخرة، كل حجر، كل نتوء صلب إلى حدود نحافة السطح المتوهج"[21]. ويقول أيضا: "لقد أذهلتني الصحراء بآنيتها وتحييدها. بطبيعة الأمر كل شيء يتمثل فيها عبر علاقات الضوء والظل على الأرض بلا تضاريس أو نتوءات حادة... يترك الحاضر لكل لحظة قادمة مكانه، لا خضوع هنا إلا للمكان الخالي من أي ظل أو سماكة. إنه التمدد في اتزان الصحراء حيث يتحول الزمان الى مكان"[22].

وتضمر، أي معرفة الراوي بالطبيعة الصحراوية، قوته، فبطريقة ما نشعر أننا أمام منظر مألوف، وعالم مألوف ومسيطَر عليه، ويمكن أن نتحرك فيه ونحقق منه ما نريد أن نصل إليه، ويمكن في النهاية إخضاع أي من أفراده مهما بدا شرسا وقويا. وهو ما سيتحقق للراوي في النتيجة. فهو يصل إلى التحرك في الصحراء بسهولة نسبية، والتنقل بين قبائلها، وإلى القبض على جساس، والعودة به إلى المدينة. ولم يفاجئه أي طارئ غير محسوب حسابه في الصحراء، أو أي فعل خارج معرفته المسبقة عنها، لا على مستوى الوصف الخارجي والتآلف مع المكان والشعور بعدم الاغتراب عنه فقط، بل على مستوى السلوك والحركة، بما يمكنه من الاستمرار في الصحراء، وتحقيق غاياته، وبما يشعره أنه أكثر ألفة معها، وقدرة على الحركة فيها، وأنه لا يجد صعوبة في الإفادة من تفاصيلها المختلفة في تحقيق غاياته ونجاته الفردية. فعن اللباس الذي ألبسه له البدو حين نزل بينهم يقول الراوي: "لقد شعرت أن هذه الملابس ـ البدوية... حررتني من تلك الضيقة التي... تشكل لي نوعا من المسافة المتعالية على الحياة هنا"[23]. ويقول الراوي عن طعام البدو: "طعامهم... جعلني أشعر بنوع من الخفة لا في الجسد فقط، ولكن حتى في الروح... فالجسد عائق كبير وترويضه يجعل الحواس رهيفة كلها، ولأدنى شيء"[24].

التضمين والحبكة:

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

يُبنى السرد المتتابع على حبكة المطاردة في الصحراء لعصابة من البدو. وفي سياق هذه الحبكة التشويقية تأتي التضمينات المختلفة التي تؤجل سير الحبكة، وتزيد التشويق من الناحية المباشرة. ومن ناحية ثانية تتصل، أي التضمينات، بتأجيل موت الراوي، وقلب الأحداث لصالحه، وذلك من خلال المعرفة المسبقة التي يمتلكها الراوي، ولا يملكها الآخرون وهي تمكنه من فهم الصحراء وأناسها وطريقة تفكيرهم وموقفهم من الحياة والموت. ففي إحدى التضمينات يبيّن الراوي خبرته بالصحراويين الذين يعتبرون الموت: طبيعيا كالحياة، و"الطبيعة تقدمه لنا... كأنه جزء من الحياة... حيث يصبح كل شيء في هذه الطبيعة شفافا، كما لو أننا في زمن الحلم"[25]. وعلينا، من هنا، ألا ننشغل بالموت وبالخوف منه. فهو بلا معنى تماما كما الحياة، إذا لم نحسن الإفادة منها. والأجدى أن نهتم بما يدور حولنا، وأن نستغل معرفتنا في فهم العالم الذي يحيط بنا، للنجاح في تخطي ضرره، أو موته الذي يحمله لنا في تحقيق غاياتنا، والفوز بالحياة.

ويبرر السرد العنف والآخر والطريقة التي تصور بها الذات الآخر على أنه شيطان، أو شرير، لكي توجد لها هوية أقرب إلى الافتراضية وتعزل الآخر، وتؤدي به إلى أن يكون عنيفا في رد فعله على ما يواجهه من احتقار وتنميط، يقول الراوي: "الجميع كان مثارا بفكرة الشر. فكرة نفي الآخر، مع أن نفي الآخر هو نفي الأنا بسبب الطبيعة المشتركة للاثنين لكن الوهم يتعمق بوجود الآخر، ويبدأ الوعي برحلته الهذيانية، يبدأ العقل بإلصاق الجريمة بالآخر ويلصق به جميع الأفعال الشيطانية، وفي الحقيقة إن كل هذا الهذيان والفانطزمات كائنة من أجل تبرير فعل العنف الذي يشتهيه البشر، والذي يقود هنا التجربة برمتها"[26].

وهو يبدي موقفا واضحا من العنف ومتأثرا بتصورات معاصرة عن الهوية والآخر والعنف كتلك التي نجدها عند أمارتيا صن في كتاب الهوية والعنف[27]. يقول الراوي أيضا: "إن هذا العنف لا ينتمي إلى عنفنا... كنت أنظره بوصفه عنف الطبيعة وحدها مفصولا عن عنف الثقافة. إنه ذلك القادم من البرية بريئا ونقيا مثل عاصفة... مثل حيوان كاسر يدافع عن نفسه"[28]. وهذا الفهم يجعل الراوي مطمئنا إلى أنه لا يواجه معركة وجود كتلك التي كانت في ذهن الضابط الذي قاد فصيلهم في أثناء المعركة مع البدو. وإنما هي معركة عارضة وطارئة ستنتهي بخروجه من الصحراء.

ويتوقف الراوي، أيضا، عند الجنس. فهل هو الجنس المعروف الذي تعرفه المدينة، ويعرفه الإنسان بوصفه غريزة؟ كلا.. إنه جنس من نوع

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

آخر يتصل بالمحيط، أي البادية، الذي يفرض طبيعته على كل شيء "لقد شعرت -يقول الراوي الذي جرب لذة أخرى مع رابعة البدوية لم يعرفها من قبل، وهو يعتقد أن جزءا من لذته يعود إلى طريقة تعامل الأنثى مع الجنس وفهمها له - أن العلاقات الجنسية عند البدو لا يشوبها أي أثر لخطيئة، أو حتى لإحساس بالذنب، فيما يحكمنا في المدن نوع من الذعر الذي تفرضه قواعد المراتب الأخلاقية، بينما هم لا يعرفون هذا التزمت الأخلاقي الذي نعرفه أبدا، إلا من جانب أن المرأة هي امتلاك، ولكن الجنس هو نوع من انتصار حاد لكل أساليب المتعة"[29]. وهذا الفهم يجعل الشخصية تمضي في تجربتها الجنسية مع رابعة، خالقة على مستوى الحبكة، توترا يجذب القارئ الى الحادثة التي تجتمع فيها لذة القراءة وترقب انكشاف أمرها، فرابعة مراقبة من أحد أفراد قبيلتها المتعصبين.

ولا بد من المقارنة بين العقلين اللذين يتصارعان؛ المديني الذي يريد أن يفرض فهمه على أي شيء يتحداه بطريقة واحدة ومنهج واحد، والبدوي الذي يدافع عن وجوده وطريقته التي اكتسبها من الطبيعة من دون أن يدري أنه يقوم بذلك الدفاع، ومن دون أن يقصد العنف أو قتل الآخر لذاته. والراوي في ذلك يقول: "ومع أن الروح العسكرية هي شكل من أشكال الروح الحربية للبدو إلا أني وجدت اختلافا كبيرا بينهما هنا، فالعسكري يمقت الطبيعة ويريد تغذيتها بكل ما هو سالب وذلك من أجل تحويل البيئة إلى شكل من أشكال الشخصنة، وهكذا فإن تفكيره لا ينفك عن اخضاع الآخرين، وهذا الخضوع لا يمنحه لذة مطلقا إنما يمنحه الاستقرار فقط، في حين يبحث البدوي عن التمرد لأنه يمنحه لذة مطلقة ونشوة كبيرة. وهذا ما يجعله يتحمل قدرا كبيرا من الأذى بسبب التمرد المعلن، فالبدوي لا يخفي تمرده مطلقا إنما يغذيه ويعلي من شانه"[30].

التضمين، إذن، يقدم التفسيرات اللازمة للأفعال التي تتشكل منها الحبكة، ولعله بطريقة غير مباشرة يوجهها الوجهة المطلوبة من الراوي، بداية من الهرب من جساس، والتنقل بين القبائل والعيش بينهم مدة مع تحقيق اللذة الجنسية الصعبة والممنوعة حد القتل، فيما لو افتضح أمره، وصولا إلى الإمساك بجساس، فبالمعرفة التي يمتلكها الراوي ويتميز بها يسير ويواصل التجربة إلى نهايتها، ويسيّر الأحداث، ويحقق غاياته.

التضمين والقراءة:

من أساسيات الصورة النمطية التقليدية عن الصحراء، المرأة التي يمتزج فيها الجمال والرغبة الحادة، أو التشهي. فعن (رابعة-ابنة البدو) يقول الراوي: "كانت تنبعث من جسدها رائحة قوية، إنها رائحة الحياة، كنت أشم من هذا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

الجسد الصلب والنابض رائحة الأرض وهي تنبعث من الطراوة التي تحيط بالعظام، كنت أشم رائحة متوحشة منها جاذبة نحوها وقوية"[31]. وهي "غاوية ومغوية معا، تذهب إلى أقصى حد من المتعة"[32]. إن صفات المرأة أقرب إلى الصفات المستقرة في المخيال المديني العام، وهي تجمع بين الخفاء شبه الكامل، الذي يفعّل الاستيهامات الجنسية، والظهور الجزئي الذي يؤكد تلك الاستيهامات، ويستحث الذهن على استكمال الصورة الشهوانية بطبيعتها، فالفتاة التي تقدم الطعام للجندي الهارب من جساس والراوي كما يصفها الأخير "شابة جميلة وضعت نقابا على فمها، وما كان يظهر منها سوى عينين سوداوين واسعتين، كانت نحيفة، ترتدي ثيابا سوداء مجسمة عليها، وقد ناولتني إزارا بخفر شديد"[33].

وتلك الصورة بما تنطوي عليه من بعد استيهامي تشكل عنصرا هاما من عناصر الصورة النمطية التي يمثلها العالم الروائي عن الصحراء التي تتجلى في أي عنصر من عناصرها، "كنت أعانق الصحراء برائحتها الحقيقية، رائحة الماعز وزفر الحليب والأرض والخبز والرمل والشعاع ورائحة الخيل والذئاب حتى غبت بنوع من النشوة الكونية"[34]. ولكنه في النهاية تمثيل واع ويصب في خدمة الراوي شأنه شأن معرفته بعناصر الصحراء الأخرى وطبيعتها فـ"البدوية حتى وان لم تقع في الحب فهي تعرف جيدا فن الهوى، وتعرف جيدا معنى المتعة، ولا تخلطها مطلقا بالفحش"[35]، فهي لا يمكن أن تؤذيه، ولا يمكن أن تعيقه، وليست تريد منه إلا متعتها. وبمعرفته لما يريده منها، ومعرفته بجزئيات العالم الذي يتحرك فيه، يصبح قادرا على تحقيق غاياته المختلفة ابتداء بغاياته الاستكشافية أول الرواية مرورا بغاياته الذاتية، وهي الحفاظ على حياته، وغاياته الجسدية ممثلة بالوصال الجسدي، وفي ظروف قاسية تتربص به، وانتهاءً بالسرد، وكتابة تجربته في رواية بعد سنوات من حادثة نجاته، ومغادرته العراق الى الخارج. وهي صورة، شأنها شأن الطبيعة في الصحراء وما تتركه في النفس من صفاء وفي العين من دهشة، لا تخلو من جانب استيهامي، وُجد ليشبع تعطش الغرب والآخر عموما، البعيد عن حياة الصحراء وحياة الشرق، إلى اللذة[36]، وعلى مستوى الرواية، إلى رغبة القارئ في أن يجد في السرد هذه المساحات التخييلية التي تشبع استيهاماته، وتتطابق مع الصورة النمطية عنده عن الصحراء.

ومن خلال تلك الاستيهامات تحقق الرواية، بدورها، انجذاب القارئ إليها، واهتمامه بها، وهو ما يكاد يشكّل سمة الرواية العربية المكتوبة في العقد الأخير من القرن العشرين، والرواية العراقية منها، في سعيها إلى القارئ، في ميل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

عام إلى إعادة وصل الأدب والرواية بالفضاء العام. الشيء الذي كفت الرواية العربية عن الاهتمام به في الفترة السابقة، انصرافا منها إلى التجريب، وإلى العناية بالشكل الروائي على حساب القراءة، وإلى العناية بمناقشة أبعاد فكرية ووجودية وثقافية أبعد، أو تجاوز اليومي، حتى إن لم تهمل اليومي[37].

إن الرواية العراقية، ورواية المنفى، لم تتخل عن القارئ واهتمت به من خلال الحبكة، ومن خلال التضمين الذي يجعل المتن حديثا، وقريبا من القارئ في الوقت ذاته. ومن ناحية أخرى بعيدة، فإنه، أي التضمين، هذه المرة يوظف معارف الراوي الخارجية في جذب القارئ إلى عالم الرواية، وجعله من غير أن يشعر شريكا في التماس العذر للمنفي من خلال قبول سرديته وقبول ما يجيء فيها من تبريرات تتعلق باستحالة العيش في بلد وثقافة تتنازعها القيم التقليدية، وتضيق فيها أية إمكانية للتعايش والتطوير. وجل ما يستطيعه صاحب الوعي والمعرفة هو استغلال معرفته ذات الأصول الغربية في الفرار.

التضمين ودلالة الرواية:

سيصل السرد من تلك المعارف، حول الصحراء، التي تبدو في هيئتها العامة تنميطية وجاهزة، إلى اتخاذ موقف واضح من المدينة، وإلى الانحياز إلى البادية فـ"نحن نبحث في المدينة عن رموز عن كثير من الايقونات عن أبطال... تحتاج المدينة إلى رموز لتجسيدها إلى قادة إلى عظماء، ولكن هل تحتاج الصحراء وهي بتقشفها وتجردها إلى كل هذه المغامرات"[38] لا تحتاج الصحراء إلى تلك الرموز، لأن الإنسان فيها قائم بذاته، وممتلئ بحياته وتجاربه. والمدينة محكومة ببواعث تأتي من الخارج، ومؤطرة بزمن وبدايات ونهايات. إنها "انتظام تام للحوادث حيث تنبثق الأحداث من وضعية متماثلة فتصبح أشبه بخطوط سلاسل أو أشكال هندسية، تنبثق الأحداث في المدينة كما لو كانت خاضعة لفن إرادي يجعل من السهل علينا إدراكه"[39]. ذلك فيما كل شيء في الصحراء، وفي البادية، محكوم ببواعث داخلية، ومؤطر بالطبيعة التي تنتمي إلى الإنسان، وينتمي إليها، فيتماهيان، ليعطي كل واحد منهما للآخر قيمته وضرورته وديمومته التي تمنحه خصوصيته. فـ"الزمن في الصحراء هارب، وكل شيء يحدث خارج علاقات عادات التعاقب المعروفة، كل شيء يحدث بشكل محض ولأسباب داخلية عميقة وكل الانطباعات والأشكال والصور خاضعة لنوع من تتابعات الديمومة الشكلية"[40].

وإذا كان النسق التأليفي في رواية "ملوك الرمال" يقوم على مجاورة التشويقي والمعرفي. ومجاورة التقليدي (ممثلا بالحبكة)، والحداثي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

(ممثلا بتقديم صورة المعرفة العقلانية المسبقة والنمطية التي توهم بمقدرتها على إخضاع العالم). ومجاورة الطبيعي (المتصل بالإنسان في هذا المكان من العالم) والثقافي (المتمثل بالقلة من أفراد هذا العالم نفسه وهم يواجهون الغالبية ممن يصعب إخضاعهم للمعرفة المسبقة ولقوتها، ويصعب تدجينهم ويصعب مواجهتهم أو تغييرهم).. إذا كان النسق التأليفي يقوم على تلك المجاورة، ويمثلها، وينتصر ظاهريا، في نهاية الرواية، للبداوة والبدوي على المدينة والمديني، فإن التضمين بإشارته إلى تلك الثنائية، وبانتصاره للتشويقي والتقليدي والطبيعي، إنما يعمل على تشكيل دلالة مغايرة لما قد يبدو تعاطفا مع الصحراء. فإذا كان الراوي يقارن بين الطبيعي والمصنوع مبديا انبهاره بالطبيعي واحتقاره للمصنوع بما يحيل إليه من فن ومدينة وقيم ناتجة عنها حيث يقول: "كل شيء هنا فائق الجمال وطاهر مثل نجم تحت سماء مفتوحة، هذه الجواهر الروحية يكفي أن تنحني وتلتقطها، لا حاجة بك إلى العمل عليها على الإطلاق... يالألوان التي تتمازج على هذه الخلفية المضيئة، التي تدحر التفاهة الفنية لكل ما هو مصنوع..."[41].. إذا كان التضمين يميل إلى الطبيعي، وإلى الصحراء في ظاهره، فإنه بشكل من الأشكال يعبر عن ازدرائه للسرديات التقليدية التي تقوم عليها الرواية، والفن المعروف بانتمائه لسلطة تدّعي المعرفة. فالمعرفة لم تعد قوة لإخضاع العالم، وإنما هي مجرد محاولة لتأجيل الموت، ووسيلة للنجاة هذا على مستوى السرد. وعلى مستوى الدلالة، وفي سياق سرديات الرواية العراقية بعد التغيير، فهي، أي المعرفة، تبرير للتخلي عن المواجهة. وهو ما ترسمه نهاية الرواية، وترشحه في ترك الراوي لجساس يفرّ.

يتصل التضمين، إذن، بالدلالة النهائية للرواية، مع أنه كما مرّ ينعكس على المتن الروائي، ويؤثر في صوغه، وفي سير حبكته، ويؤدي غايات جمالية، وينعكس، أيضا، على صلة القارئ بالنص تلك الصلة التي، كما أرى، صارت الرواية والكتابة عامة بما فيها النقدية، أكثر حرصا عليها مؤخرا، انسجاما مع توجهات ما بعد الحداثة إلى كسر مقولات التسلط والمركزية أيا كانت من مؤلف ونسق تأليف ونوع أدبي، وصولا إلى إعادة دمج الأدب، والرواية في المجال العام، لا بوصفها رائدا وقائدا للوعي وموجها وناقدا، ولكن بوصفها رواية عن الواقع والذات، تعيد تشكيل الوعي بهما، ونقلهما عبر السرد منسجمين مع سرديات لا تنتمي إلى كليات أو مركزيات بقدر انتمائها إلى مجموعات كالمنفيين في الرواية العراقية فيما أميل إلى تسميته "سرديات الضحايا"[42].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

وتسعى سرديات الضحايا إلى تعزيز مقولة إن الذات التي أضعفتها ما بعد الحداثة، وقزمتها روائيا، صارت مؤخرا تحاول أن ترد التقدير إلى نفسها، من موقع الإنسان العادي، لا المؤلف كلي العلم. ومن موقع القارئ إلى حد ما. وهي، في أحوالها جميعها، تسعى إلى نزع الاعتراف بها من الآخرين، ومن موقع الضحية التي لها سردياتها، وهي تحتاج إلى التعبير عنها وتحتاج إلى تمريرها بمساعدة نسق تأليفي مقنع.

تركيب:

تستغل رواية ملوك الرمال لعلي بدر المستوى المباشر من السرد التشويقي، والمتمثل بحكاية المجموعة العسكرية التي تُكلف بمهمة ملاحقة عصابة من البدو داخل الصحراء، لإثارة قضية أبعد تتصل بالعلاقة بين الطبيعي والثقافي، وبين التقليدي والتحديثي، ولا يظهر ذلك الصراع مباشرا، وإنما من خلال التضمين الذي يأتي متخللا المتن السردي الذي يتابع حادثة المطاردة بين الفصيل العسكري وعصابة البدو، وتطوراتها. وهذا التضمين هو الذي ينقل الأحداث من بعدها المباشر إلى بعد ثقافي يتصل بالموقف من الثقافة والمدينة العربية، وكيفية تعاملها مع الغرب والثقافة الحديثة وتلقيها لها، وكيف تعامل الثانية الأولى في لقاء غير متكافئ، وغير محسوم،لا يورث غير الصراع والخراب.

وما يرشح هذا البعد الدلالي الأخير، هو ما يتضمنه المتن السردي من توصيفات ذات محمولات نمطية للصحراء، تأتي بمجملها، أي التضمينات ومحمولاتها، من التصورات والكتابات الاستعمارية حول الصحراء وإنسانها. وهذه التوصيفات، أو التضمينات، تجعل الراوي أمام فرص أوفر للخلاص من موت محقق على يد البدو. وفي مقابل ذلك، وعلى المستوى الأبعد، تجعله أكثر انتماءً للمنفى. فهو يعرف، مقدما، ما سينتهي إليه الصراع بين حضارة تظن أنها منظمة، وعارفة، وقوية بمعرفتها ممثلة بأمريكا، وقوى عشوائية تقليدية لا تريد أن تخضع لمعرفة الآخر، ولا لقوته. وهي، في النهاية، ستقاومه، وربما تهزمه، وفي الأحوال كلها لن يتمكن منها، ولن يستطيع أن يخضعها، ولن يستطيع أن يغيّر من طبيعتها، أو وضعها مهما بذل من جهد.

سيقوم التضمين بوظائف متعددة، منها تنشيط الحبكة التقليدية لتكون ذات دلالات ثقافية ونقدية تتجاوز البعد التشويقي الساذج الذي توحي به الأحداث وطريقة السرد الذي لا يخرج عن نسق تقليدي هو التتابع. ومن وظائف التضمين الأخرى، تقديم مفاهيم وتصورات نمطية عن الصحراء تنسجم مع متخيلات القارئ التقليدية الاستعمارية الأصل التي تشبع الجوانب الاستيهامية والتخيلية لديه، وتعزز الجانب التشويقي، أو تبرر بعض أحداثه، كتلك التي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

تتصل بعلاقة الراوي الجنسية بالمرأة البدوية[43].

وهي من هذه الناحية تقرب الرواية إلى القارئ، وإلى فضاء التقبل العام ذلك الذي تحرص عليه رواية ما بعد التغيير العراقية في الغالب[44] بعد أن كان هذا السؤال، أي سؤال القارئ والتلقي، قد أصبح مهملا أو ثانويا في الروايات العراقية في الحقبة السابقة. وثالثة وظائف التضمين، تحميل تلك التوصيفات للصحراء وعوالمها، دلالة جديدة مغايرة للمعلنة يجري ترشيحها من خلال سير الحبكة بطريقة تبدو معاندة لمحمولات التضمينات، وغير متفقة معها فيما يولد الدلالة الكلية للرواية في سياق كتابتها، أي حقبة ما بعد التغيير العراقية. وهنا تعود الحبكة التشويقية القائمة على أحداث ملاحقة الفصيل العسكري لعصابة جساس بدور نهائي في اقتراح الدلالة، ويصير لها وظيفة أبعد من التشويق، وتكون مُبرَرة جماليا وروائيا.

إن الرواية، بعامة، في سعيها الدائم إلى خلخلة المواضع المستقرة في العالم المروي، وتعريضها للشك، وإزاحة الثبوتية التي تمتعت بها عناصر المروي لعقود من عمر الرواية العربية، لم تكن أبدا لتغفل السياق الثقافي والحضاري والتاريخي والسياسي الذي تنتمي إليه، وهي، إذ تعود في ذلك فكريا إلى النقد ما بعد البنيوي، أو ما بعد الحداثي، وما بعد الاستعماري، في حالة علي بدر، فإنها تعود في انتمائها إلى السياق الذي أنتجت فيه، وهو رواية ما بعد التغيير العراقية، إلى أزمة المنفى، وموقف الذات من الوطن، ومحاولة تقديم إجابات، أو تبريرات شافية لنفسها ولكاتبها ولقارئها، في نوع من التخفف الأخلاقي ضمن ما يمكن أن نسميه "سرديات الضحايا" أو الحكايات والقصص التي يسوقها الكاتب، ويضمنها بطريقة غير مباشرة، موقفه من قضايا الوطن والثقافة، أو يضمنها تبريرا لاختياره المنفى مستقَرا له، وقد تفننت الرواية العراقية في العقد الأخير في الانتماء إلى تلك السرديات، واعتمدتها في متونها السردية بطريقة، أو بأخرى.

وسيوّلد هذا التمزق في الانتماء بين النقدي والواقعي، أو التمزق بين الاهتمام النظري الذي يتصل بمرجعيات الرواية وبمناقشتها للقضايا الفكرية وبمتابعتها للمقولات النقدية الحديثة المتمثلة بما بعد الاستعمار، وبين الإصغاء إلى الواقع الذي انتجته سلسة من المشكلات الثقافية الخاصة بالمجتمع العراقي نجم عنها مشكلات سياسية وقيمية وأخلاقية، وكلها كانت إلى حد بعيد تسعى إلى اقترح شكل مختلف للعلاقة بين البادية والمدينة، وبين الشرق والغرب، وبين الهوية والآخر.. سيوّلد ذلك التمزق في الانتماء أشكالا سردية وروائية يصعب إخضاعها لقوالب ولقياسات فكرية أو نقدية محددة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

وذلك جعل رواية كـ"ملوك الرمال" موزعة بين واقع يثبت زيف تلك المعرفة وعدم الاعتراف بها ويلحق الخسارات المتتالية بأصحابها والمقتنعين بها من المثقفين والمبشرين بالمدينة والمدنية، وبين صورة نمطية أوجدتها الذهنية الاستعمارية، صورة تحاول أن تفترض امتلاك المعرفة، وامتلاك السلطة المترتبة على المعرفة، والثقة بتلك المعرفة وتلك السلطة، وهو ما يظهر في التصورات النمطية التي يبثها الراوي، الجندي العراقي، عن الصحراء، وعن طبيعتها ونسائها وحياتها. وهي تصورات صنعها الاستعمار، واقترحها، ولا صلة لها بالصحراء ولا بإنسانها، ولا تعني أبدا، في النهاية، شيئا إلا لأصحابها. ولا تُعدّ مصدر قوة. وإنما على العكس.

ستتضمن الرواية، بشكل معلن واحتفائي وتسليمي، الصور النمطية عن الصحراء، كما صنعتها المخيلة الاستعمارية، وكما أملتها المعرفة الاستشراقية، وستبدو أي الرواية، راضية بها، ولكن لتثبت فشلها ولا جدواها، ولتضمر ضمنا أنها بحاجة إلى إعادة نظر، ولتعرضها للنقد والنقض، ففي النهاية لن تكون تلك التصورات النمطية إلا سببا من أسباب فشل محاولات السيطرة على البداوة، ومن ثمّ على التخلف والنزعة نحو الأصولية في مجتمعاتنا، ولن تؤدي إلا إلى مزيد من التصادم، وغياب التفاهم الذي يدفع ثمنه المثقف، ومن يحاول السيطرة على الخارجين على المدنية.

وهو ما يحصل في الواقع. ففي النتيجة لم تفلح محاولات أكثر من قرن من الزمان، من الإصلاح والدعوة إلى النهضة والمدنية، في شيء غير زيادة الأصولية، وزيادة المقاومة للتحديث، ولم تنته إلا بلجوء الغرب إلى الاستعمار المباشر ثانية. وهو ما تنقله الرواية في مشهدها الأخير، إذ تلقي الطائرات الأمريكية على العراق أطنانا كثيرة من المتفجرات، لتخرجه من الكويت، ولتسيطر على منابع النفط.

والرواية من الناحية الدلالية تجسد موقفا فرديا، كما هو شأن أغلب الروايات. وحلا فرديا ذا طابع يتصل بطبيعة الرواية العراقية التي كُتبت مؤخرا في المنفى. إذ أن المعرفة النمطية عن الشرق، وفي الرواية عن البدو، وهي معرفة زائفة، ستمكن الراوي من النجاة من الموت، وستجعله واثقا من لا جدوى الفعل في الوطن، وستجعله يختار المنفى، ويبرر ذلك الخيار للقارئ سرديا. فما جدوى المقاومة بمعرفة زائفة وبقوة كاذبة، ما دامت تنتهي، كما يبدو واضحا، إلى مزيد من الخسارة والخراب والدمار!

الهوامش

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

(1) تروي حياة البابلي في "سيدات زحل" قصتها وقصص مجموعة من السيدات العراقيات اللواتي يعانين الحرب والاحتلال والخوف والقتل وتنتهي بقرار هجرة بغداد التي انتشر فيها الإرهابيون والميلشيات والقتل والخراب. ينظر: لطفية الدليمي، سيدات زحل، دار فضاءات، عمان، 2009.

(2) يشير مصطلح ما بعد الكولونيالية إلى آثار الاستعمار على الثقافات والمجتمعات. ويستعمله النقاد لمناقشة الآثار الثقافية المتعددة للاستعمار. ينظر: بيل اشكروفت وآخرون، دراسات ما بعد الكولونيالية "المفاهيم الرئيسية"، ترجمة: أحمد الروبي وآخرين، المركز القومي للترجمة، مصر، 2010. ص282 وما بعدها. وفي البحث، هنا، جاء المصطلح ليشير إلى وعي الروائي بآثار الاستعمار في العقل المديني وفي طريقة تعامله مع ما يختلف عنه. وهو تعامل لا يختلف عن تعامل المستعمِر مع المستعمَر ولذا يتضمن إلحاق الضرر بالعقل المديني. ولعل معرفة الكاتب بطبيعة هذه العلاقة وما تنطوي عليه من تصنيفات جاهزة هي ما تجعله ينتمي إلى ما بعد الكولونيالية من جهة، وتجعله من جهة ثانية ينجو من الموت داخل الرواية. وخارجها يهاجر بعيدا عن خراب مستديم تنبأ به بطريقة ما.

(3) عبد الله ابراهيم، المتخيل السردي، مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، المركز الثقافي العربي، 1990، ص110.

(4) ينظر: عبد الله الغذامي، الثقافة التلفزيونية "سقوط النخبة وبروز الشعبي"، المركز الثقافي العربي، 2005.

(5) ينظر: فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط2002/2. فصل بعنوان وضع الرواية العربية في حقل ثقافي غير روائي ص143 وما بعدها.

(6) ينظر: عبد الله الغذامي، تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، 1999. فصل بعنوان : هل الرواية رجل ابيض؟

(7) ينظر عن نسق التتابع وعلاقته بالتشويق وبالسرد القديم والتقليدي: شجاع مسلم العاني، البناء الفني في الرواية في العراق،دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1994.

(8) ينظر: عبد الله ابراهيم، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005، ص295. وعن المقهى وتأثير القاص في السامعين وتأثير هؤلاء في القص يقول المؤلف: كان الرواة يترددون على المقاهي، التي بلغ عددها في نهاية القرن التاسع عشر في القاهرة قرابة عشرة آلاف مقهى، وكانت مروياتهم تتصف بأنها تشرح النفس وتشحذ العقل وكان المتلقون يستقبلون طرائق الرواة الحية المثيرة بصورة تكشف عن تفاعلهم الكبير مع تلك المرويات.

(9) عن الاستشراق والمعرفة، ينظر: إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، 1981.

(10) سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي، 2000، ص14.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

(11) مجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، إشراف: محمد القاضي، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، 2010، ص97.

(12) أنواع التضمين المذكورة تجدها على سبيل المثال في رواية: محمد عزب، خيوط القدر، دار العين للنشر، الاسكندرية، 2012.

(13) علي بدر، ملوك الرمال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2011/3، ص18.

(14) السابق،28.

(15) السابق، 75.

(16) السابق، 43.

(17) السابق، 228.

(18) السابق، 151.

(19) السابق، 21-22.

(20) السابق، 16-17.

(21) السابق، 157.

(22) السابق، 74-75.

(23) السابق، 154.

(24) السابق، 186.

(25) السابق، 118-119.

(26) السابق، 132.

(27) ينظر: امارتيا صن، الهوية والعنف "وهم المصير الحتمي"، ترجمة: سحر توفيق، عدد 352، 2008، ص83.

(28) ملوك الرمال (مذكور)، 135.

(29) السابق، 221.

(30) السابق، 242.

(31) السابق، 211-212.

(32) السابق، 164.

(33) السابق، 218.

(34) السابق، 211-212.

(35) السابق، 221.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462

(36) ينظر: فاطمة المرنيسي، هل أنتم محصنون ضد النساء، ترجمة: نهلة بيضون، المركز الثقافي العربي، ط3/2008.

(37) إلى الآن ثمة من يتهم الكتابة الروائية الروايات التي تفوز بالبوكر بالسطحية والابتعاد عن البعد المعرفي في الكتابة ويقيس ذلك على روايات عربية لكتاب اهتموا بهذا البعد كمنيف وجبرا والخراط ومن يشبههم من الكتاب الحاليين.

(38) ملوك الرمال (مذكور)، 53-54.

(39) السابق، 111.

(40) السابق، 153.

(41) السابق، 220.

(42) يريد كتّاب هذا النوع من السرديات الإشارة إلى أنهم بشكل ما ضحايا لنظام سياسي جائر سابقا وحاليا لوضع أفرزه الاحتلال والإرهاب. فهم مهجرون سابقا ومبعدون قسرا لاحقا ولم يختاروا الحالتين، وبذلك فهم لا يقلون تأذيا من أبناء الداخل الذين يعانون من التفجيرات والعنف ونجد هذا التوجه سائدا في معظم الأعمال الروائية المكتوبة في الخارج كأعمال إنعام كجه جي وبخاصة: طشاري الصادرة عن دار الجديد، بيروت العام 2013. مثلما هو يظهر في كتب السيرة الذاتية أو رواية السيرة ومنها على سبيل المثال حرب العاجز "سيرة عائد-سيرة بلد"، زهير الجزائري، دار الساقي، بيروت-لبنان، 2009. ويظهر أيضا في كتب السيرة الثقافية ككتب: تهافت الستينيين، فوزي كريم، دار المدى، دمشق، 2006. وكتاب الروح الحية "جيل الستينات في العراق"، فاضل العزاوي، دار المدى، دمشق، ط2/2003.

(43) بارت في لذة النص يعتبر الوصف الجسدي والجنسي مهما للقراءة فهو يجعل القارئ يتلذذ بالقراءة بالمعنى الجنسي للكلمة ويواصلها الى نهايتها وهو يقصد تحديدا قراءة الرواية. ينظر: رولان بارت، لذة النص، ترجمة: محمد خير البقاعي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1995.

(44) رواية ما بعد التغيير وحرصها على القارئ فيما يسميه الأستاذ القاص محمد خضير عمومية المعلومة التي تتفرع عن النظام الرقمي (سلسة مقالات للكاتب في صحيفة الصباح العراقية) أو العالم الالكتروني الافتراضي الذي كسر حدة حضور المؤلف ومركزيته وتعاليه على القارئ. فالفضاء الالكتروني فضاء يشاع فيه التواصل وتُبسط فيه المعلومات والأفكار حرصا على تحقيق ذلك لتواصل.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/462